



سؤال "النظرية" في الفكر الإسلامي

دراسة معجمية تاريخية وفلسفية مقارنة

د. جمال الدين ناسك

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بني ملال
المغرب



استهلال

يندرج البحث في سيرة مفهوم "النظرية" في الفكر الإسلامي، ضمن دائرة بحثية أوسع تنعياً، بما يشبه الحفر الأركيولوجي، البحث في أشكال الوعي المنهجي والإبستمولوجي في القطاعات المعرفية الأساسية التي شكلت الروافد الأساسية للثقافة الإسلامية؛ ولذلك فلا يسع الدارسَ لمناهج العلوم الإسلامية عموماً، ولسيرة مفهوم "النظرية" وعلاقتها بهذه العلوم بصفة خاصة إلا أن يستحضر الملاحظات الآتية:

- إن البحث في تاريخ "النظرية والتنظير" هو في حقيقته بحث في تاريخ تشكل وصياغة العلوم في الدائرة الإسلامية وبناء أطرها المنهجية؛ ومعنى ذلك أن بناء تصور متكامل ومستقصي عن وضع "النظرية" في الفكر الإسلامي، يتطلب تحليل أنساق "الخطاب الإسلامي" وتفكيك بنية "العقل العربي الإسلامي" على حد تعبير الجابري رحمه الله.
- إدراك الاختلافات المنهجية العميقة بين العلم والنظرية من جهة، ومن جهة ثانية؛ بين النظرية من حيث هي حقل معرفي مستقل في نظام بنيته المنهجية والمعرفية، وبين التنظير بما هو جهد عقلي يروم الكشف عن الفكرة النظرية الثابتة خلف الجزئيات والفروع، وهو الجهد الذي لم تخل منه الثقافة الإسلامية مند بدايات تشكل قطاعاتها المعرفية المختلفة.
- إن تأخر ظهور النظريات في الفكر الإسلامي (نموذج النظرية الفقهية)، لا يعني أن هذه العلوم لم تكن نسقية أو فاقدة للشرط النسقي المكون للنظرية.
- إن تجديد المعرفة الدينية (أفضل: تجديد الفكر الإسلامي) بما يتطلبه من إضافات علمية حقيقية؛ ينطلق من بناء النظريات والنماذج التفسيرية، وتوسيع مساحات التنظير والإبداع؛ خاصة في القضايا ذات البعد الكوني التي تشكل هما إنسانياً مشتركاً..، وذلك انطلاقاً من أن "النظريات هي الوحدة الأكثر تماسكاً في المعرفة"؛ ومعنى ذلك على المستوى التجديدي: ضرورة استئناف التجديد على أسس متينة وبشروط منهجية وعلمية تتسم بالدقة والبرهانية والموضوعية (ولا أقصد العدمية باسم العلم)، بعيداً عن الخطابات البيانية الحماسية الفاقدة لأية وظيفة ولأى معنى.



- إن فقه المصطلحات، والحفر في تاريخ تشكل المفاهيم والمصطلحات، وتتبع سياقاتها الخاصة والمختلفة، والتدقيق في استعمالاتها؛ هو المدخل المنهجي اللازم لقراءة العلوم الإسلامية (باعتماد المنهج التاريخي التحليلي)
- إن اليقظة الإسلامية ينبغي أن تتجاوز مرحلة الصحوة بما هي حالة حماسية غير منضبطة ولا منتجة، إلى مرحلة التنظير والإنتاج المعرفي المنضبط بقواعد التفكير المنهجي؛ لأن ما يعاب على هذه الحالة كما يقول الدكتور طه عبد الرحمن هو غياب التنظير: "اعلم أن اليقظة الدينية التي دخل فيها العالم الإسلامي في العقدين الأخيرين، أثارت عند الأنصار والخصوم من المواقف المتفاوتة والمتباينة ما قد لا تؤمن عواقبه إن لم يكثر به التلبس وتقع به الفتنة. واعلم أيضا أن هذه "اليقظة العقديّة"، على انتشارها في الآفاق وتأثيرها في النفوس، تفتقر إلى سند فكري محرر على شروط المناهج العقلية والمعايير العلمية المستجدة، فلا نكاد نظفر عند أهلها لا بتأطير منهجي محكم، ولا بتنظير علمي منتج، ولا بتبصير فلسفي مؤسس"¹

انطلاقا من هذه الملاحظات؛ سنحاول في هذه الورقة، تتبع سيرة "النظرية" مفهوما ومصطلحا وبنية، في الفكر

الإسلامي، مقارنة بمسيرتها الإستمولوجية في الفكر والفلسفة الغربيين، وذلك من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- أ. ما هي دلالة مصطلح "النظرية" في الوضع اللغوي العربي، والقاموس اللاتيني؟
- ب. وما هي دلالات مفهوم "النظرية" في التداول الثقافي الإسلامي، ونظيره الغربي؟
- ت. وما هي سيرة هذا المفهوم وتطور بنائه التاريخي في كلا المنظرين؟
- ث. وما هي الإشكالات المنهجية والمعرفية التي عرفها بناء هذا المفهوم، وما اصطلاح عليه بأزمة النظرية في العلوم الإنسانية تحديدا.
- ج. ما هي الأركان الأساسية المكونة لبناء النظرية في البحث العلمي؟
- ح. في أي مرحلة، في المنظومة المعرفية الإسلامية، يأتي بناء النظريات؟

¹ - طه، عبد الرحمن. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، البيضاء، المغرب، ط2، 1997، ص: 9



خ. وما هي علاقة النظرية الإسلامية بغيرها من مكونات هذه المنظومة؛ كالرؤية المعرفية، والإطار المرجعي، والنظام المعرفي؟

د. ماهي مصادر التنظير في الفكر الإسلامي؟

ذ. وماهي معايير وشروط تكوين النظرية في هذا الفكر؟

1: مفهوم "النظرية" في اللغة والفلسفة

1-1: الدلالة المعجمية لمصطلح "النظرية":

لم يتشكل مفهوم "النظرية" دفعة واحدة، حيث عرف مدلول هذا اللفظ، في مسيرة تكوين معناه الاصطلاحي، تحولا ملحوظا، من وضعه اللغوي الأصلي إلى دلالات أوسع ومعاني أرحب.

لذا سنحاول في هذا المطلب رصد مختلف المعاني المعجمية الوضعية للفظ "النظرية" كما أثبتتها المعاجم العربية، القديمة والحديثة، وما يحيل عليه من دلالات في التنزيل القرآني، مركزين في هذا المطلب على رصد مختلف التطورات الدلالية، والمعاني المجازية التي اغتنى بها هذا اللفظ خلال مسيرة تداوله في اللسان العربي، والتي شكلت قاعدة بناء مفهوم "النظرية" ودلالاته الاصطلاحية والإبيستيمية (المعرفية) في مرحلة لاحقة، في الفكر الفلسفي بالخصوص.

1-1-1: "النظرية" في المعجم العربي القديم

يثبت اللسان العربي للجذر الثلاثي (نظر)، أصل اشتقاق كلمة "النظرية"؛ صنفين من الاستخدام الدلالي:

أ. **الدلالة الوضعية:** وتفيد المشاهدة والإبصار بالعين؛ ويعتبر هذا المعنى هو الأصل الأول الذي شاع استعماله في اللسان العربي؛ فقد ورد في معجم العين، أقدم المعاجم العربية تصنيفا، لصاحبه الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175): "نظرت إلى



كذا وكذا: من نظر العين ونظر القلب"¹، وعنه نقل ابن دريد (ت 321هـ) في معجم جمهرة اللغة، هذا المعنى؛ "والناظر موضع النظر من العين"².

وقال أبو نصر الجوهري (ت 400هـ) في معجم "الصحاح في اللغة": "والنظر: تأمل الشيء بالعين (...). ويقال للعين الناظرة"³، لذلك صرح ابن منظور (ت 711هـ): "النظر حس العين"⁴

ب. **الدلالة المجازية؛** وتحيل على معاني التأمل والتدبر والتفكير والتقدير، وهي معاني مرتبطة بإعمال القلب، فيما يشبه "انزياحا دلاليا يخرج من حيز المشاهدة بالعين، إلى المشاهدة بالقلب"⁵؛

وقد ركزت كتب المعاجم والتعريفات على هذا المعنى المجازي، وتوسعت في استخلاص مختلف المعاني الاصطلاحية التي سيتلَبَس بها لفظ "النظر والنظري والنظرية" بعد ذلك، كما هو متداول عند المناطقة والأصوليين وغيرهم؛ فقد نبه أحمد بن فارس (ت 395هـ) إلى ذلك بقوله: "النون والطاء والراء أصل صحيح يرجع فروعه إلى معنى واحد؛ وهو تأمل الشيء ومعاينته، ثم يستعار ويتسع فيه"⁶، وقد جاء في لسان العرب تأكيد على هذه الدلالات الموسعة، وإبراز لكثافة استعمالها: "النظر؛ الفكر في الشيء وتقيسه منك" وإن كان ابن منظور ينبه إلى أن ثمة فرقا بين "النظر في" و"النظر إلى"؛ "إذا قلت: نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت نظرت في الأمر؛ احتمل أن يكون تفكرا فيه وتدبرا بالقلب"⁷ وقد أشرنا سابقا إلى ما ذكره معجم العين بأن "نظرت إلى كذا وكذا: من نظر العين و نظر القلب"⁸.

ج. وقد يطلق لفظ "النظر" ويراد به معنى العقل، كما صرح بذلك صاحب معجم شجر الدر⁹ وهو المعنى الذي يتماهى مع الدلالة المجازية لهذا اللفظ؛ إذ لا تخفى أهمية العقل في عمليات التأمل والتفكير والتدبر.

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، مادة نظر (باب الطاء والراء والنون).

2 - ابن دريد، جمهرة اللغة، مادة (رظ ن) باب الراء والطاء.

3 - أبو نصر الجوهري، الصحاح في اللغة العربية، مادة نظر، باب الراء، فصل النون.

4 - ابن منظور، لسان العرب، مادة نظر.

5 - ناظم عودة، تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ليبيا، ط1، 2009.

ص: 27.

6 - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة نظر، باب النون والطاء وما يثلثهما.

7 - ابن منظور، لسان العرب، مادة نظر.

8 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين مادة نظر، (باب الطاء والراء والنون).

9 - أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، معجم: شجر الدر، تحقيق، محمد عبد الجواد، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968. ص129.



وسيشكل مجموع هذين الصنفين؛ الدلالة الاصطلاحية لكلمة النظرية كما تداولتها المعاجم العربية المتأخرة (كما سنوضح لاحقاً)، علماً أن القواميس الأقدم تصنيفاً خلت من هذا اللفظ، إذ اكتفت بضبط معاني جذرها الثلاثي "نظر" كما بينا. في الوقت الذي كان لكتب المنطق والفلسفة إسهام وازن في تحديد دلالات "العلم النظري" وما يرتبط به من تفرعات ومسائل منذ القرن الثاني للهجرة.

وتستند أصول هذه المعاني (الحقيقية والمجازية) على ما ورد في القرآن الكريم من دلالات لفظ "نظر" بمختلف صيغها الصرفية:

1- فقد ورد بمعنى الإبصار والتأمل بالعين؛ كمثل قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:

23-22] ومثله في قوله عز وجل: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةً عَامٍ فَأَنْظِرُ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ۖ وَأَنْظِرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259]، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الأعراف: 108]

2- وورد بمعنى الانتظار والتأخير؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: 79] وقوله تعالى: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ [الحجر: 8]

3- ومن معانيه أيضاً: الاعتبار؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17]

4- ويفيد أيضاً: التأمل في الواقع واستقراء جزئياته، بهدف الوصول إلى حقائق كلية عامة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْطِي الْأَيْتُ وَالنُّجُومُ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111]



5- ومن معانيه أيضا: التفكير والتحليل والنقد والحكم¹ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ وَفَقَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقُتِلَ كَيْفَ

قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ ۖ﴾ [المدثر: 18-23]

فواضح إذا؛ أن القواميس العربية المتقدمة قد اعتمدت هذه المعاني القرآنية، إلى جانب ما حفظه اللسان العربي شعرا ونثرا لهذا اللفظ، وذلك وفق منهج اللغويين القدماء في إيراد مختلف معاني ودلالات الكلمة العربية، ولعل هذا ما يفسر خلو هذه المعاجم من كلمة "النظرية".

ويقدم الباحث ناظم عودة² تفسيرا لتأخر ظهور لفظ "النظرية" في القاموس العربي، كما أهملت كثير من المصطلحات المستحدثة في لغة العرب؛ إذ يُرجع الأمر إلى أن "ثمة توترا ثقافيا بين الكلمات السليبية التي تعد من ذخيرة العرب الأقباح، والكلمات التي اصطبغت بصبغة ثقافية جديدة في عصر العلوم. فقد ظل هؤلاء اللغويون مشدودين إلى جراثيم (أصول) الكلمات في دلالتها الوضعية، ولم يتجاوزوا هذا المنهج إلى الاستعمالات اللغوية الجديدة، التي أصبحت حقيقة لغوية، نتيجة لقانون التطور اللغوي"³.

إضافة إلى أن السائد في الثقافة الإسلامية، قبل عصر التدوين وإبانها، هو مفهوم "العلم" الذي كان يقوم مقام "النظرية"؛ وذلك لأصالته اللغوية وشرعيته الدينية. وحتى بعد اكتمال الأسس المنهجية والابستمولوجية للعلوم الإسلامية بعد هذا العصر؛ فإن النظرية بقيت في الموقع التابع، ولعل هذا ما يفسر تأخر النظريات الفقهية عن علم الفقه مثلا.

1-1-2: "النظرية" في المعجم العربي الحديث

لم تجد "مفردة" النظرية طريقها إلى المعجم العربي الحديث إلا مع الآباء اليسوعيين في لبنان نهاية القرن التاسع عشر، بسبب تعريب بعض الألفاظ المعجمة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية تخصيصا؛ إذ سُجِّل أول ذكر لكلمة "نظرية"، في معجم "محيط المحيط" لواضعه المعلم بطرس البستاني (1819 _ 1883م)، بمعناها الاصطلاحي: "النظرية: مؤنث النظري، في

1 - محمد حسين، التنظير المقاصدي عند الإمام محمد بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، دكتوراه الدولة، جامعة الجزائر، 2005، ص124.

2 - ركزنا على دراسة الدكتور ناظم عودة السالفة الذكر؛ لتخصصه في هذا المجال، ولأن مؤلفه يعتبر الأقرب في نظرنا في حدود ما اطلعنا عليه إلى تحقيق مفهوم النظرية؛ تاريخيا ومعرفيا ومنهجيا.

3 - ناظم عودة، تكوين النظرية، مرجع سابق، ص29.



الهندسة قضية محتاجة إلى برهان لإثبات صحتها"¹. وهو التعريف الذي أثبتته حرفياً صاحب "منجد الطلاب"، الأب لويس معلوف (1908م).

وعلى الرغم من ورود لفظة "النظرية" بهذا الاصطلاح الدلالي، في هذه المعاجم المتأخرة، فإن هذه الأخيرة ظلت تنظر إليها وفق دلالاتها كما وردت في المعاجم المتقدمة، مع بعض الإضافات القليلة المستوحاة من تقسيم العلوم والمعارف إلى "نظرية" و"ضرورية"، وهي قضية "منطقية" يرجع تحقيقها إلى لحظة احتكاك الثقافة الإسلامية بالمنطق الأرسطي، وما نتج عنها من جدل علمي؛ بين داع لإدماج هذا المنطق في بنية الفكر الإسلامي بالمطلق، وبين رافض له بالكلية، أو داع إلى تنقيحه وتبنيته ليناسب العلوم العقلية الإسلامية. من غير أن تقترب هذه المعاجم المتأخرة من المفهوم الفلسفي للنظرية بوصفها تركيباً عقلياً تجريدياً².

وقد كان علينا الانتظار إلى النصف الثاني من القرن العشرين لتدخل "النظرية" إلى القاموس العربي بمفهومها الحديث، كما نجده في "المعجم الوسيط" (1960م)؛ حيث توسع مفهوم النظرية بإدخال مدلوله الفلسفي، وما ارتبط به من مفاهيم، كنظرية المعرفة مثلاً:

"النظري: يقال أمر نظري: وسائل بحثه الفكر والتخيل. وعلوم نظرية: قل أن تعتمد على التجارب العملية ووسائلها. النظرية: قضية تثبت بالبرهان. وفي الفلسفة: طائفة من الآراء تفسر بها بعض الوقائع العلمية أو الفنية. ونظرية المعرفة: البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع، أو بين العارف والمعروف، وفي وسائل المعرفة؛ فطرية أو مكتسبة"³.

¹ - المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، 1987 الطبعة (د.ر) ص 901.

² - ينظر ناظم عودة، مرجع سابق، ص 31.

³ - المعجم الوسيط، مجموعة من الكتاب، دار أمواج، بيروت، الطبعة الثانية، 1987/1407 ص: 932.



على أن مدلول هذا اللفظ، بعد ذلك، في التداول الثقافي العربي والإسلامي، سيتجاوز هذا المفهوم الذي أثبتته "المعجم الوسيط" ليفيد بأنها كيان فكري "مجرد ذو درجة عالية من السبك والتدليل"¹ غايتها "استخلاص مفاهيم وتصورات وقيم عامة بموجبها نستطيع توجيه دراسة من الدراسات وتطويرها"².

نخلص بعد هذه الجولة في سيرة كلمة "النظرية"، وتطورها الدلالي في اللسان العربي بمختلف صيغها، كما نقلته القواميس والمعاجم العربية، المتقدمة والمتأخرة؛ أن "النظرية" لفظة عربية الاشتقاق، أصيلة غير مهجنة ولا مؤلدة، ويشهد لذلك ورود أصلها اللغوي في القرآن الكريم، كما أنها ستلبس بدلالات أعمق من الدلالة الوضعية الأصلية، متأثرة بمفهومها الاصطلاحي الذي بدأ يتسلل إلى القواميس العربية الحديثة، تأثرًا بـ "التلاقح الفكري" و"المثاقفة" مع الفكر الفلسفي الغربي؛ الذي تعامل مبكرًا مع هذا المصطلح، وطوره من وضعه اللغوي اللاتيني، إلى مفهوم أصبح يحتل مكانة عريضة في هذا الفكر، تبعًا لتطور العلوم الطبيعية والإنسانية.

— فما هو عرق مصطلح "النظرية" في اللسان الإغريقي اللاتيني (أصل اللغات اللاتينية الحديثة)؟

— وما دلالتها الوضعية في اللسان الأوروبي الحديث؟

1-2: "النظرية" في التداول الألسني الغربي (القديم والحديث):

1-2-1: الجذور اللغوية لـ "النظرية" في اللسان اللاتيني القديم.

تعدد معاني وإيحاءات دلالات كلمة "النظرية" في الموروث الإغريقي واللاتيني، ومنه تعدت إلى اللسان الأوروبي الحديث؛

فهي تعني:

— النظر والرؤية والإبصار بالعين، وهي المعاني المباشرة (الحقيقية) في التداول والاستعمال العامي الدارج.

— وتعني أيضًا؛ "الحقيقة المجردة من الغايات النفعية" thea.

1 - بناصر البعزاتي، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2007، ص242.
2 - مقداد الجليلين، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية، 1991/1411، ص6.



– وتفيد أيضا معنىً دينياً فـ "theo" تعني الإله عند الإغريق¹، ومنه علم اللاهوت "theologia" المتكون من شقين: الأول من لفظة "Theo" وتعني الإله، والثاني لفظ "logos" أي العلم²، ويقصد به العلم الذي يهتم بالنظر العقلي للدين.

ثم إن هذه المفردة تحمل دلالات ومعاني أخرى، مرتبطة بالرياضيات والاحتفالات العامة التي اشتهرت بها المدن الإغريقية؛ فهي تدل على:

- الناظر "theoros" أو المشاهد لهذه المباريات، أو حكام المباريات والمشرفين على السباقات³.
- كما تدل على معنى مستفاد من الأول، يرتبط "بالعلاقات الدولية، أو المشاهد theoros (...)" هو تحديدا المرء الذي يرتحل حتى يرى الناس والأشياء⁴.
- ثم اتسع هذا المعنى الحرفي فيما بعد؛ ليدل على "معنى التأمل أو التفكير النظري"⁵. وتعتبر هذه الدلالة المجازية، الأكثر تعبيرا عن مدلول النظرية الذي سيغدو معنى "اصطلاحيا" بعد ذلك، ويتبناه الفكر الفلسفي الكلاسيكي⁶ والحديث؛ والذي يفيد معنى الاستغراق في التأمل الذهني الصرف⁷. وعلى أساس هذا التصور قسم "أرسطو" المجتمع اليوناني؛ إلى طبقة أسياد وطبقة عبيد، تبعا لحيازتهم "المعرفة النظرية" وقدرتهم على التأمل العقلي من عدمها؛ فالمعرفة النظرية تجعل من مالکها سيادا يُصدر الأوامر ولا يستقبلها، أما الذي يعمل بجسده وعضله، لا بعينه وتأمله العقلي فهو بالضرورة الطبيعية خادم وتابع⁸.

1 – ميغان الرويلي، وسعد اليازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الخامسة، 2007، ص 275.

2 – ناظم عودة، مرجع سابق، ص 34.

3 – ميغان الرويلي، مرجع سابق، ص 275.

4 – المرجع نفسه، ص 276.

5 – طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2010.

6 – أقصد حتى القرون الوسطى.

7 – ناظم عودة، مرجع سابق، ص 35.

8 – دليل الناقد الأدبي، مرجع سابق، ص 276.



غير أن التطور الدلالي الأوضح الذي سيكتسبه هذا المصطلح هو الذي ستحفظه لنا المعاجم الأوروبية الحديثة وخاصة الإنجليزية منها.

1-2-2: دلالة "النظرية" في المعاجم اللغوية الأوروبية الحديثة

أوردت أهم المعاجم الأوروبية الحديثة مختلف المعاني اللغوية للفظ "theory" المقابل اللاتيني للنظرية، تبعا للتطور التاريخي لدلالاتها في الاستعمال اللغوي الأوروبي، وإن كانت قد ركزت في معظمها على الدلالات المفهومية دون التوسع في الجذور اللغوية للكلمة؛ فمعجم أكسفورد مثلا يورد أكثر من معنى لها، منه ما ارتبط بالوضع الأصلي ومنه ما تحمّله اللفظ نتيجة الانزياحات اللغوية، والاستعمالات المجازية، وصولا إلى المعنى الذي صار اصطلاحيا في غير الاستعمال اللغوي، والذي استكمل بناءه في ميادين معرفية أخرى؛ فهي تعني (في معجم أكسفورد)¹:

- مشهد، منظر، عرض.
- تصور أو مخطط ذهني لشيء ما ينبغي القيام به، أو طريقة القيام بذلك؛ عرض منهجي لقواعد أو مبادئ يجب اتباعها.
- رؤية عقلية ذهنية.
- مخطط أو نظام أفكار أو تعابير لتفسير مجموعة من الحقائق أو الظواهر.
- افتراض يحتاج إلى البرهنة عليه بالتجربة أو الملاحظة، ليقبل في عداد الحقائق العلمية.
- غالبا ما تستخدم على أنها تعني ضمينا فرضية غير معتمدة لا أقل ولا أكثر.

كما أن "المعجم الفرنسي" Robert بدوره، في تعقبه لمعاني مفردة "Theorie"، يؤكد المعاني السابقة نفسها، موضحا أن الإطلاق الأول لهذه الكلمة كان يتضمن معنى دينيا، في العهد اليوناني، أما في العصور الوسطى؛ فإنها اكتسبت

90 .The oxford dictionary. Clarendon press. Oxford.1991. vol.17.p - 1



معاني أكثر تجريدا لتدل على الأنشطة التأملية والحداثية، لتأخذ مفهومها الفلسفي، وقيمتها العلمية بعد ذلك، في بداية القرن السادس عشر الميلادي¹؛ حيث أصبحت تعني: "المعرفة العقلية الخالصة المناقضة للمعرفة العملية"²

أما معجم Webster للغة الإنجليزية المتخصص، فلا يضيف جديدا إلى المعاني التي أثبتتها المعجمان السالفان، لكنه في المقابل، يشدد على المعنى التجريدي التي تتضمنه النظرية؛ فهي تفيد³:

- تحليل مجموعة من الحقائق في علاقاتها الواحدة بالأخرى.
- تفكير مجرد، تأمل، اعتقاد.
- المبادئ العامة أو المجردة للحقيقة، في مجال العلم، أو الفن وغيرهما.
- مجموعة من الحقائق الافتراضية أو المثالية.

فمفردة "النظرية" في اللسان الأوروبي الحديث هي امتداد لمعانيها الأصلية في اللسان الإغريقي اللاتيني، إلا أنها ستعرف تطورا دلاليا واضحا، مستفيدة من تحول استعمالها من الوضع اللغوي التواصل، إلى الدلالة الاصطلاحية على يد الفكر الفلسفي الحديث حيث ستكتسب هذه "المفردة" مفهومها الإستمولوجي، موازاة مع تطور هذا الفكر، وما شاهده من نقلات معرفية كبيرة ومتسارعة، خاصة في عصر النهضة. ومن ثم فقد لاحظنا أن هذه المعاجم اللغوية الأساسية قد أثبتت هذه الدلالات الاصطلاحية إلى جانب المعاني اللغوية المتداولة للفظ النظرية، مع تحديد تواريخ ظهور تلك الدلالات والاصطلاحات.

وقد انطلقت "المعاجم الفلسفية" في تحديد المعاني الاصطلاحية الفلسفية لهذا المفهوم، من حصيلة المعجم اللغوي، وبنيت على استنتاجاته وتقريراته، وكشفت في الآن نفسه عن التعقيد المتصاعد في "مفهوم النظرية"؛ حيث سيظهر الإسهام المحوري للفكر الفلسفي في بنائه، وتحديد ملامحه الأساسية، ووضع بنيته المنهجية ووظيفته العلمية المعرفية.

¹ - يحدد المعجم الفرنسي Le Robert تاريخ ظهور هذا المصطلح بهذا المعنى في سنة 1587م (3816/3)، بينما يحدده المعجم الإنجليزي في سنة 1598م

2-PARIS . 1998. Tome 3. PP :3816/3817. Dictionnaire Le Robert.

3 - Webster dictionary. 1223.p



1-3: مفهوم "النظرية" في المعجم الفلسفي

ركزت جل "المعاجم الفلسفية" في تعريفها لـ"النظرية"، على الطبيعة الذهنية المجردة لهذا المفهوم، كما ذكرت مختلف إطلاقاتها بحسب ما يقابلها من التصورات والمفاهيم، سواء في التداول العامي أو العلمي. وهي في جميع تلك الإطلاقات الفلسفية، أبعد عن الواقع التجريبي وقوانينه، وأكثر تجريدا؛ لأنها تقوم على "المفاهيم" و"المبادئ" و"المعايير" الذهنية؛ فقد عرفها "جميل صليبا" في معجمه بأنها: "قضية تثبت ببرهان، وهي عند الفلاسفة تركيب عقلي، مؤلف من تصورات منسقة، تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ"¹، وذكر، في التعريف نفسه، ما تدل عليه إذا أطلقت في مقابل التصورات التي تخالفها؛

1. "إذا أطلقت النظرية على ما يقابل الممارسة العملية في مجال الواقع دلت على المعرفة الخالية من الفرض المتجردة من التطبيقات العملية.
2. وإذا أطلقت على ما يقابل العمل في المجال المعياري؛ دلت على ما يتقوم به معنى الحق المحض أو الخير المثالي المتميز عن الالتزامات التي يعترف بها جمهور الناس.
3. وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة العامة دلت على ما هو موضوع تصور منهجي منظم ومتناسق تابع في تصوره لبعض المواضع العلمية التي يجهلها عامة الناس.
4. وإذا أطلقت على ما يقابل المعرفة اليقينية دلت على رأي أحد العلماء أو الفلاسفة في بعض المسائل الخلافية، مثال ذلك نظرية الخطأ عند ديكرت.
5. وإذا أطلقت على ما يقابل الحقائق العلمية الجزئية دلت على تركيب عقلي واسع، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر، ويقبله أكثر العلماء من جهة ما هو فرضية قريبة من الحقيقة، مثال ذلك نظرية الذرة.²

1 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت. الط (د ت)، 1982 ص 2/478.

2 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت. الط (د ت)، 1982، ص 2/478.



وإلى أغلب هذه المعاني يذهب مراد وهبة في "المعجم الفلسفي"، مؤكداً على الطابع النسقي للنظرية؛ "إذ إنها تطلق على مجموع المسلمات والمبرهنات، ولا تقال على قضية واحدة من قضايا النسق"¹.

ويبدو أن كلا المعجمين (الجميل صليبا، ومراد وهبة)؛ قد استلهما تعريفات "أندريه لالاند" للنظرية ولم يزيدها شيئاً على ما جمعه في موسوعته الفلسفية. كما أنه يضيف إلى ما ذكرنا؛ أن ما يغلب على استعمال هذه الكلمة في التداول العامي غير المتخصص؛ هو "استعمالها بمعنى سوقي، ازدرائي، فتطلق صفة "نظرية" إما على نظرة فكرية مبسطة تبسيطاً مصطنعاً (...)، وإما على تصور فردي، وعشوائي ناجم عن الخيال، أو التحزب أكثر مما هو ناجم عن العقل"². كما يفيدنا أيضاً معجم "لالاند" في تدقيق تاريخ استعمال هذا المصطلح الدال على تلك المفاهيم المذكورة؛ فهذا المصطلح "لم يكن موجوداً في فرنسا، ويبدو أنه كان نادراً حتى في ألمانيا، إلى منتصف القرن التاسع عشر"³. وهو ما يخالف ما سبق أن ذكرناه، عن تاريخ ظهور هذا المصطلح في المعجم الأوروبي.

وقد حاول معجم "مصطلحات الثقافة والمجتمع" المترجم حديثاً إلى اللغة العربية، تركيب تعريف فلسفي علمي جامع للنظرية، يستفيد من مختلف التعريفات الفلسفية السابقة، مؤكداً فيه على العلاقات النسقية القائمة بين مكونات النظرية، باعتبارها نموذجاً تفسيريّاً للظواهر التي تسعى النظرية لفهمها وتفسيرها؛ فالنظرية هي: "مخطط أو نسق من الأفكار أو الأحكام التي تراعى كتوضيح أو تفسير لمجموعة من الوقائع أو الظواهر؛ أي هي فرضية تؤكدتها أو ترسخها الملاحظة أو التجريب، تقترح أو تقبل كتفسير لوقائع معروفة؛ وبيان لما يعتبر قوانين عامة، أو مبادئ، أو أسباب شيء ما معروف أو ملاحظ"⁴. والذي يجدر التنبيه إليه، في ختام البحث في تطور الدلالات اللغوية والفلسفية المعرفية لـ "النظرية"؛ أن الخوض في تاريخها، مصطلحاً ومفهوماً، يحتزل في عمقه تاريخ تطور المعرفة الإنسانية، في سعيها الحثيث إلى نمذجة الظواهر الطبيعية والإنسانية، في أنساق ونماذج عقلية؛ لمزيد من فهم وتفسير هذه الظواهر للتحكم فيها والتنبؤ بما آلتها. مع ما واكب مسيرتها في تاريخ التفكير الإنساني، من جدالات حادة حول صديقتها في التعبير عن هذه المعرفة. ولذلك فإن البحث في تاريخ "النظرية" والأشكال الأخرى للتظير في النظامين المعرفيين، الإسلامي والغربي، سيكشف المزيد من الأضواء عن طبيعة "النظرية" وأسسها المعرفية والمنهجية في هذين النظامين.

1 - وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار مأمون للطباعة القاهرة الط3، 1979، ص447

2 - أندريه لالاند، الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، 1454/3.

3 - المرجع نفسه، 1455/3.

4 - أونطوني بينيت وآخرون، مرجع سابق، ص. 692.



2: سيرة مفهوم "النظرية" في الفكر الإسلامي. والفكر الغربي

إن البحث في تاريخ تشكل المدلول الاصطلاحي لمفهوم "النظرية"، ومعناها الدلالي في الفكر العربي الإسلامي، أو في الفكر الغربي الحديث خاصة؛ هو في حقيقته رصد لأهم لحظات تشكيل هذين الفكرين، وما سادهما من فترات توهج وعطاء، أو لحظات كمن ونكوص. كما يكشف عن تطور بناء هذا المفهوم، جنباً إلى جنب، مع قطاعات وحقول معرفية أخرى، تربطه بها تقاطعات معرفية ومنهجية، سواء في العلوم الطبيعية، أو تلك التي تبحث في الظاهرة الإنسانية.

1-2: سيرة مفهوم "النظرية" في الفكر الإسلامي

أقصد بهذا العنوان؛ بحث بدايات أشكال التفكير النظري المنهجي في الفكر الإسلامي وخصائصه، إلى أن استوت على عودها، ونضجت علومها ومفاهيمها ومناهجها. وقد عرفت الثقافة العربية الإسلامية مبكراً الفكر التنظيري، بما هو نشاط ذهني مجرد، حتى قبل أن يتطور مفهوم "النظرية" ذاته في أحضان الفكر الفلسفي الغربي، بالموازاة مع حركة استقلال العلوم عن الفلسفة، لتصبح حقلاً معرفياً تطور جنباً إلى جنب مع "نظرية المعرفة" في النظام المعرفي الغربي.

تفيدنا كتب المنطق والفلسفة الإسلامية، والمقدمات المنطقية لكتب أصول الفقه؛ أن "النظرية" بما هي مصدر صناعي (كما تم تحديد مدلوله الاصطلاحي) لم ترد في المصادر الإسلامية، وأن الفكر الإسلامي القديم لم يتعامل مع "النظرية" بهذا الوصف؛ وإنما السيادة في هذا الفكر كانت لـ"العلم"، منذ الإرهاصات الأولى لظهور العلوم الإسلامية وسيرها الخيبي نحو استكمال أسسها المنهجية والموضوعية. لذلك فإن "النظرية" في تلك المصادر لم ترد إلا باعتبارها وصفاً لتلك العلوم؛ "وجاءت الياء فيها للنسبة والتاء للتأنيث، وإذا كان الموصوف مذكراً قيل: "نظري"، وبهذا تختلف اللفظتان تماماً، حيث إن النظرية التي نحن بصدد بيانها مصدر صناعي، والنظرية التي كانوا بصدددها صفة (...). فالعلوم النظرية عند القدامى كانت ترد نقيضاً لأمرين هما: العلوم الضرورية التي لا تحتاج معرفتها إلى كسب، وكذلك العلوم المتعلقة بكيفية عمل"¹. وقد أشرنا سابقاً إلى أسباب تقسيم العلوم في الفكر الإسلامي إلى "نظرية" و"ضرورية"².

¹ - نجم الدين قادر كريم الزنكي، نظرية السياق دراسة أصولية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2006/1427.

² - اعتاد الأصوليون في تقديم مصنفاتهم البدء بالمبادئ الكلامية، حيث يحددون فيها المدلول الاصطلاحي لأهم المبادئ والمفاهيم التي يحتاج إليها الأصوليون في بناء مسائله الأصولية؛ ومنها "العلم" وتقسيمه إلى "ضروري" و"نظري" أو مكتسب، قال الإمام الشوكاني (ت: 1250هـ): "ثم العلم ينقسم بالضرورة إلى: ضروري ونظري.



وإذا ما تجاوزنا هذا التقابل بين العلوم، وبحثنا في مختلف أشكال وطرق التنظير المنضبط بمناهج علمية دقيقة؛ فإنه يمكن الجزم بأن الثقافة الإسلامية عرفت مبكرا الفكر التنظيري¹، حتى قبل استكمال العلوم الإسلامية لمناهجها، وترسيم مباحثها ومسائلها، وبناء مفاهيمها ومقولاتها. بل إننا سنشهد في لحظات التوهج الحضاري للأمة الإسلامية؛ نزوع كثير من العلماء إلى إنتاج "نظريات متكاملة"، مرتبطة بالعلوم اللغوية أو الشرعية أو الفلسفية، وما احتضنته هذه العلوم من جدالات فكرية بين علماء الأصول، وعلماء اللغة، وعلماء الكلام وغيرهم، وإن لم توسم هذه الإنتاجات باسم "النظرية"؛ فالنظريات مثل "نظرية العامل في النحو، ونظرية خلق القرآن، ونظرية الجبر والاختيار في العقائد، ونظرية الفيض أو المعرفة أو الحركة في الفلسفة، ونظرية النظم في البلاغة، ونظريات نشأة اللغة في علم اللغة"² تظهر بوضوح وعي العلماء المسلمين بأهمية التفكير بشروط "النظرية"، وتوظيف الأدوات المنهجية الدقيقة في معالجة المشكلات المعرفية والواقعية.

ولعل الباعث الأكبر على تشكيل هذا الوعي، والحرك الذي أوقد في نفوس العلماء زناد المعرفة العقلية الخالصة؛ دعوة القرآن الكريم المتكررة إلى التدبر والتفكير، والتأمل في الظواهر الكونية، وإعمال العقل في المعطيات العينية لاستكناه ما تزخر به من حقائق وأسرار خفية، متوارية وراء هذه الموجودات. ولذلك نجد في القرآن الكريم توظيفا مكثفا لهذه المفاهيم؛ بقصد دفع المؤمن إلى التلبس بحالة "النظر" وما ينتج عنها، "وبذلك تصبح قوى الوعي قادرة على التدبر والتفكير، وبلوغ المعرفة وإدراك الأمور. فكأن التفكير يقود إلى النظر المتعمق الذي يوصل إلى الإبصار"³، وفي المقابل فقد ذم القرآن الكريم علم الكفار؛ لأنه لا يتجاوز ظواهر الأشياء، ولا ينفذ إلى حقائقها الخفية؛ قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: 7]؛ قال أبو حيان الأندلسي⁴ في البحر المحيط: "أي ما أدته إليهم حواسهم، فكأن علومهم إنما هي علوم البهائم."⁵ ويؤكد هذا القول ما ذهب

فالضرورة: ما لا يحتاج في تحصيله على نظر (إلى نظر واستدلال). والنظري: ما يحتاج إليه. والنظر: هو الفكر المطلوب به علم أو ظن. وقيل: هو ملاحظة المعقول لتحصيل المجهول. وقيل: هو حركة النفس من المطالب التصورية أو التصديقية، طالبة للمبادئ وهي المعلومات التصورية والتصديقية، باستعراضها صورة صورة. وكل واحد من الضروري والنظري ينقسم إلى قسمين: تصور وتصديق = والكلام فيهما مبسوط في علم المنطق. (إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1999/1419، 22/1) + وقد اقترب معنى النظر عند الأصوليين من معنى الاجتهاد باعتباره "بذل الوسع في نيل حكم شرعي بطريق الاستنباط"

1 - يميز بعض الباحثين بين مفهوم "النظرية" ومفهوم "التنظير"، على اعتبار أن الثاني أعمق وأشمل دلالة من الأول؛ لأنه يهتم أساسا ب"تقعيد القواعد، وتأسيس الأصول، وتقنين المسائل، وبناء الأسس" التنظير المقاصدي عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، ص: 125.

2 - ناظم عودة، مرجع سابق، ص ص: 49/48.

3 - طه جابر العلواني، أفلا يتدبرون القرآن، دار السلام، الطبعة الأولى، 2010/1431. ص 98.

4 - أبو حيان الأندلسي (654 - 745 هـ، 1256/1344 م)، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الإمام أثير الدين الأندلسي الغرناطي، التفري، نسبة إلى نَفْرَة قبيلة من البربر، نحوي عصره ولغويته ومفسرته ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه.

5 - أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413/1993. 158/7.



إليه الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير "مفاتيح الغيب" بقوله: "يعني علمهم منحصر في الدنيا، وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هي، وإنما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها، ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها"¹.

إذن فقد شكلت هذه الدعوة القرآنية، وما مائلها من أحاديث نبوية؛ الباعث الحثيث على ميلاد التفكير النظري التأملي العقلي، أساساً في النص القرآني والحديث النبوي، تفسيراً وتأويلاً، ثم في القضايا المعرفية والواقعية التي أفرزها تزايد تعقد الحياة الفكرية والاجتماعية بعد مرحلة النبوة، لتصل ذروتها مع احتكاك المسلمين بالفكر الفلسفي اليوناني، وتسلسل الفلسفات الإشرافية للأمم المفتوحة².

وقد كان من نتائج هذه الحركة الفكرية نشوء وارتقاء "العلوم الإسلامية" التي اكتملت مناهجها ومواضيعها في عصر التدوين، مسفرة عن نشاط منهجي غاية في الصرامة والدقة؛ فقد "كان المنهج، منذ البدء مستنداً على القرآن والسنة"³، معبراً عن روح الإسلام الحقيقية، مستمداً مقوماته من البيئة الحضارية للأمم؛ لذلك فقد رفض العلماء المسلمون "المنطق الأرسطي" لتلبسه بالميتافيزيقا اليونانية، وبمقومات حضارتها الوثنية. لذا فإن الدارس لتاريخ تكوين العلوم الإسلامية، كعلم الأصول وعلم الكلام مثلاً، يلاحظ شدة اهتمام العلماء بالشرط المنهجي في بناء "العلم"؛ فعمل الإمام الشافعي مثلاً في "الرسالة"، ووضعه قواعد الاستدلال والاستنباط؛ يعد من المحاولات الإسلامية المبكرة للانتقال من مستوى التعامل مع المعطيات والقضايا الجزئية، واستنباط الأحكام الفرعية التفصيلية لهذه القضايا؛ إلى إدراك القوانين الناظمة لما تجزأ من هذه التفريعات والتفصيلات، فقد "كان الناس قبل الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون، ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة في كيفية معارضتها وترجيحها، فاستنبط الشافعي علم أصول الفقه، ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع في معرفة مراتب أدلة الشرع إليه"⁴. ومن ثم فإن علم "أصول الفقه" كما وضع أسسه الأولى الإمام الشافعي، واستكمل بناءه فيما بعد؛ يمكن اعتباره تفكيراً نظرياً بامتياز⁵، موضوعاً ومنهجياً؛ "ذلك أن الإمام الشافعي قد لاحظ في منهاجه الذي وضعه عن علم الأصول في "الرسالة" وفي كتاب "جماع العلم" وكتاب "إبطال الاستحسان"، أن يكون علم الأصول ميزاناً ضابطاً لمعرفة الصحيح من الآراء من غير الصحيح، وأن يكون قانوناً كلياً تجب مراعاته عند استنباط الأحكام في أي عصر من العصور"⁶. ومثل هذا يقال في "علم الكلام" ومسائله في الإثبات العقلي لقضايا العقيدة

1 - الرازي، فخر الدين (ت 604)، التفسير الكبير المشتهر بمفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1401/1981. 98/13.

2 - نسبة إلى الأمم التي فتحها المسلمون، ذات التقاليد أو الأفكار الفلسفية أو التأملية، كالأندلس والفرس وغيرهم.

3 - علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، مرجع سابق، ص 8.

4 - فخر الدين الرازي، مناقب الشافعي، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1403/1968، ص 157.

5 - قد أشرنا بإيجاز إلى هذه الفكرة سابقاً، ونعيد التأكيد عليها في هذه الفقرة، معززة بالشواهد والأدلة؛ وذلك لأهميتها في هذا السرد التاريخي.

6 - جمال الدين عطية، التنظير الفقهي، الطبعة الأولى، (د.ت)، ص 25.



ومسائلها، وفي "الفقه" ومناهجه في "التفصيل الفقهي". هذا مع تمييزنا الشديد للاختلاف الاصطلاحي بين مفهومي "النظرية" و"العلم"؛ كون الأولى مرحلة متأخرة عن مرحلة بناء الثاني (أي العلم)، بما أن "هدف العلم هو بناء النظريات، وأن النظرية هي المنتج النهائي للنشاط العلمي"¹.

غير أن دخول الثقافة الإسلامية في دورة الركود والجمود، بعد لحظة ما اصطلح عليه ب"سد باب الاجتهاد، بعد القرن الخامس الهجري، واكتفاء العقل الإسلامي بالاقتنيات من ثروة عهد الازدهار؛ آلت الحضارة الإسلامية إلى الانكفاء والضمور شيئاً فشيئاً، ومعه توقف هذا العقل عن إنتاج النظريات، وتوليد العلوم؛ وذلك بسيادة الشروح والمختصرات والحواشي، في مقابل تضاؤل مساحة الإبداع والعطاء الفكري المتجدد، في الوقت الذي ستشهد فيه "النظرية" اكتمال مسيرة بنائها في المنظومة المعرفية الغربية، مستفيدة من حركة ترجمة العلوم والمناهج العربية، خلال عصر النهضة الأوروبية، ولكن دون أن تسلم هي كذلك من الجدل حول "علميتها"، خاصة في مجال العلوم الإنسانية.

أما ما اصطلح عليه ب"النظريات الفقهية"؛ بما هي "المفهوم العام الذي يؤلف نظاماً حقوقياً موضوعياً تنضوي تحته جزئيات موزعة على أبواب الفقه المختلفة"²، فإن ظهورها وإن جاء متأخراً³، فقد توافقت مع حرص عدد من الفقهاء المعاصرين على تجديد الفقه وتطويره وتحريك الدماء في شرايينه، لينبعث من جديد قائماً بمهمته في نضجة الأمة، لما لم يعد قادراً على عدم مجاراته للواقع، فكان لا بد من تجديد الدرس الفقهي وإحيائه بصياغة وبناء النظريات الفقهية، الجامعة والضابطة للأحكام الفرعية الجزئية.

ويجدر بي التنبيه، في ختام هذه الفقرة، إلى جهود بعض المفكرين المعاصرين، لإحياء النقاش الفكري حول "النظرية الإسلامية"، أو "المنهجية الإسلامية"⁴ كما يطلق عليها بعضهم، من ذلك إسهامات رواد تيار "إسلامية المعرفة"، في إطار مشروعهم الرائد للتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، وصياغتها من المنظور المعرفي الإسلامي، انطلاقاً من قيمه ومبادئه العليا ومقاصده الحاكمة، لتجاوز مآزق "النظرية الاجتماعية" المتولدة في الإطار المعرفي الغربي وأصوله الوضعية المادية، أهمها محاولات بعض أقطاب

1 - إبراهيم عبد الرحمان رجب، التأصيل الإسلامي للعلوم الإسلامية، دار الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، 1997/1416، ص.150..

2 - الزحيلي، وهبة. الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، 1989/1409. 7/4

3 - ترى الدكتور وسيلة خلفي أن تأخر "التنظير" في الدراسات الشرعية عموماً، والفقه الإسلامي خصوصاً، مرده "إلى تأخر الاشتغال بالعلم النظري المجرد، عن العلم العملي التطبيقي، كما أن العلوم النظرية في الشريعة الإسلامية، باعتبارها علوماً ضابطة للمفاهيم والتصورات، إنما جاءت ابتداءً على تطبيقات واسعة لهذه العلوم، كانت هي المرتكز في التأسيس النظري لها. وعليه يأتي الكلام عن التنظير متأخراً زمنياً عن النظريات نفسها؛ لأنه يستخلص من خلال وصف المنهج المتبع في الكشف عنها" (خلفي، وسيلة. مصطلح النظرية في الدراسات الشرعية المعاصرة، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2011، ص:47)

4 - يحدد الدكتور أبو القاسم حاج حمد المنهجية بقوله: "... فالمنهجية التي نقصدها هي الناظم الشمولي للكون في وحدة مظاهره المتكاثرة، والتي لا تقبل أشكالاً جزئية من المعرفة المادية أو الوضعية أو اللاهوتية." (منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الإنسانية، دار الهادي، بيروت، ط2003، ص237)



هذا التيار لاكتشاف "منهجية القرآن المعرفية"؛ أمثال: ذ. أبو القاسم حاج حمد¹ و د. طه جابر العلواني²، يضاف إليهم نقد الدكتورة الراحلة منى أبو الفضل للنظرية الاجتماعية الغربية، وطرحها للبديل التوحيدي الوسطي، في مقالها المتميز: "النظرية الاجتماعية المعاصرة: نحو طرح توحيدي في أصول التنظير ودواعي البديل"³، وقد أسهم هذا التيار في إعادة هذه القضية إلى دائرة النقاش والجدل في الفكر الإسلامي، انطلاقاً من وعيهم بضرورة تجاوز "الأزمة المنهجية"؛ كونها بؤرة الأزمة الفكرية التي تعاني منها الأمة، و هي في ذات الوقت منطلق إصلاح هذا الفكر (أقصد المنهجية).

2-2: تطور النظرية في الفكر الغربي

أشرنا سابقاً إلى أن لفظة "النظرية" عرفت تطوراً دلالياً متصاعداً، من وضعها اللغوي ذو الأصول اللسانية الإغريقية اللاتينية، إلى أن اكتمل معناها الاصطلاحي في أحضان الفكر الفلسفي الغربي، مستفيدة من استقلال العلوم الطبيعية والإنسانية عن الفلسفة "أم العلوم"، تبعاً لحاجة هذه الأخيرة لـ "النظرية" لبناء مناهجها واستكمال موضوعاتها. وسنحاول أن نتبع في هذا المطلب مسيرة مفهوم "النظرية" في السياق المعرفي الغربي، وتحديدًا "النظرية العلمية" في إطار العلوم الطبيعية.

اهتم "فلاسفة العلم"⁴ بمراحل تشكل "النظرية العلمية" باعتبارها "نموذجاً للمعرفة العلمية بمعناها الدقيق"⁵، مركزين على تفحص بنيتها المنهجية، ومضمونها المعرفي. ويستفاد من هذا التخصص الفلسفي؛ أن "النظرية العلمية" مرت بأربعة أطوار كبرى، تبعاً لتطور وظيفتها التفسيرية، وحقيقتها العلمية.

أما **الطور الأول**؛ "فقد كانت فيه "النظرية" وصفية خالصة، تكاد تخلو من اللمحات العقلية التفسيرية"⁶، وهي بذلك تواكب المرحلة البدائية في المعرفة، التي تعتمد على الحواس، وتسعى إلى الاستفادة العملية المباشرة من هذه المعرفة. ولما أصبح الإنسان

1- يعتبر كتاب الحاج حمد "منهجية القرآن المعرفية" الملخص لجهوده في هذا المجال، والتي ابتدأها بكتاب "العالمية الإسلامية الثانية، جدلية الغيب والإنسان والطبيعة"
2- ينظر على سبيل المثال كتابه: "نحو منهجية معرفية قرآنية" و "معالم في المنهج القرآني".
3- مجلة إسلامية المعرفة، العدد 6، السنة 1996، ص 96_109
4- أقصد: المهتمون بـ "فلسفة العلوم" (الابستمولوجيا) بما هي العلم الذي يهتم بـ "الدرس النقدي لمبادئ مختلف العلوم وفرضياتها ونتائجها، الرامي إلى تحديد أصلها المنطقي، قيمتها ومداهما الموضوعي" موسوعة لاند الفلسفية 1/357
5- بدوي، عبد الفتاح محمد، فلسفة العلوم: العلم ومستقبل الإنسان. دار قباء الحديثة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2007، ص: 171.
6- المرجع نفسه، ص 171.



أكثر نزوعاً إلى تفسير الظواهر، والبحث في العلة، وإدراك العلاقات بين هذه الظواهر بالاستعانة بالمفاهيم النظرية¹؛ انتقلت "النظرية العلمية" إلى **الطور الثاني**؛ الذي سيتسم بغلبة طابع التفسير "الميتافيزيقي" لقوى الطبيعة.

"أما **المرحلتان الثالثة والرابعة** فتتميزان بخفوت صوت المعرفة الوصفية المباشرة (...) مقابل اتساع أفق النظر العقلي (...) في ابتكار العديد من المفاهيم النظرية التفسيرية. وحينئذ تتجه النظرية بخطى واسعة نحو التفسير"². فالذي يميز المرحلتين الأخيرتين؛ هو الحضور المكثف للمضمون التفسيري لمفاهيم النظرية؛ "بمعنى أنه كلما كان المحتوى التفسيري للمفاهيم النظرية أكبر، كلما كنا أقرب إلى المرحلة الرابعة، التي نعيشها الآن مع بداية القرن الواحد والعشرين"³.

وتبعاً لهذه الأطوار التي قطعتها "النظرية العلمية" في تشكيل موضوعها، واكتساب علميتها؛ فإن الوضع المعرفي لـ"النظرية" عموماً سيتدرج من المعاني "العامية" الدارجة، إلى أن يستقر عند الدلالة الاصطلاحية التي أوردتها المعاجم اللغوية والفلسفية⁴؛ فهي في أول أمرها كانت تطلق "في مقابلة الممارسة أو التطبيق لتعني تصوراً أو مخططاً عقلياً لشيء ما لا بد من عمله، أو لمنهج عمله؛ أي البيان النسقي لقواعد أو مبادئ يجب اتباعها"⁵.

أو تطلق في مقابل التجربة في معنى ثانٍ "فتكون النظرية مرادفة للمعرفة العقلية التأملية"⁶ أما التجربة فهي مرتبطة ارتباطاً مباشراً أساساً بالحواس والمعاناة المباشرة، ومن ثم فإنها في معنى ثالث تطلق ويراد بها ما كان مرادفاً "للتخمين والظن وعدم اليقين، أو تأرجح الصدق، وكأنها مجرد فرض"⁷. إلا أن الوظيفة التفسيرية والتنبؤية للنظرية في العلوم الطبيعية، بعد استقلالها عن الفلسفة، هي التي ستحسم في معنى "النظرية العلمية" وموضوعها في القرن السادس عشر، إذ صارت تعني "مخططاً أو نسقا من الأفكار أو الأحكام التي تراعى كتوضيح، أو تفسير لمجموعة من الوقائع، أو الظواهر"⁸، وذلك على نحو يجعل من المستطاع استنباط قوانين جديدة بطريقة

1 - المرجع نفسه ص 172.

2 - المرجع نفسه ص 173، 172.

3 - المرجع نفسه ص 173.

4 - أوردنا سابقاً مختلف المعاني الاصطلاحية للنظرية في الفكر الفلسفي الغربي، ونؤكد هنا على إعادة بحث هذه التعريفات من زاوية متابعة مراحل التطور الدلالي الاصطلاحية لهذا المفهوم، ورصد أهم التحولات التي طبعته مسيرته في هذا الفكر.

5 - طوبني بينيت وآخرون، مرجع سابق، ص 692.

6 - بدوي، عبد الفتاح محمد، مرجع سابق، ص 173.

7 - المرجع نفسه، ص 174.

8 - طوبني بينيت وآخرون، مرجع سابق، ص 692.



رياضية. والأمر الأساسي في هذا التعريف الذي ستسقر عليه الدلالة الاصطلاحية لـ "النظرية العلمية" في العلوم التجريبية هو "فكرة العلاقات النسقية بين مكونات نموذج تفسيري"¹، الذي تقترحه النظرية لتفسير الظاهرة الطبيعية قيد الدراسة.

وإذا كانت "النظرية العلمية" قد حازت علميتها، واكتسبت بنيتها المنطقية، ووظائفها ووضعها المعرفي، إلى حد كبير في حقل العلوم الطبيعية؛ فإن "النظرية الاجتماعية" في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، على العكس من ذلك، مازال الجدل بشأن علميتها، ومصداقيتها في دراسة الظاهرة الإنسانية. وقد لخصت حركة "المابعدية" المتمردة على النط المعرفي الغربي المؤطر "للنظرية الاجتماعية"، لخصت مجمل انتقاداتها العلمية والمنهجية لهذه لنظرية في تلبسها بالمثل الآتية:

- "المبالغة في الموضوعية إلى حد التقديس.
- الانطلاق من الخلفيات الإيديولوجية، والنماذج المعرفية التي تحولت إلى توجيهات إيديولوجية ملزمة.
- أن المعرفة في هذه النظرية ليست حيادية، بل تستقر من واقع زمني ومكاني محدد، ومن ثم فهي لا تصلح للتعميم.
- أن هذه المعرفة متوترة وشككية في منطلقها.
- اعتماد العقلانية المفرطة، وحصر الأدوات المعرفية في العقل فقط"².
- والذي يظهر أن هذه الانتقادات الموجهة للنظرية الاجتماعية، تتم في عمومها النظام المعرفي الغربي بأكمله، وتحديدًا مصادر التنظير في هذا النظام، والإطار المرجعي لتلك النظرية المتمثل فيما تسميه الراحلة منى أبو الفضل بثقافة التآرجح³، المنتكبة عن الوسطية والاعتدال.

1 - المرجع نفسه، 692.

2 - فضيل دليو، علم الاجتماع المعاصر: إشكالية ثنائياته النظرية والمنهجية، مؤسس الزهراء للفنون والطباعة، الجزائر، 2005/1425. ص: 24_28 (بتصرف).

3 - ينظر مقال: النظرية الاجتماعية المعاصرة: نحو طرح توحيدي في أصول التنظير ودواعي البديل، مجلة إسلامية المعرفة العدد 6 ص: 75.



خاتما:

فإن الحفر اللغوي التاريخي، والتقصي المعرفي لتكوين المصطلحات والمفاهيم، عبر مسيرة تكونها الدلالي ينبى عن تعقد مسيرة الفكر والحضارة وتطور قضاياها وإشكالاته المعرفية والمنهجية، لذلك كان من أهم الفروض البحثية التي تتحدى الفكر العربي والإسلامي المعاصر، تحقيقا للوصل بين الشرط التاريخي والنجاعة العلمية والعملية، بما هما الشرطان الضروريان لتحقيق الحضور الحضاري والفاعلية والراهنية..، ولئن كان اختيارنا لمصطلح "النظرية" للتدليل على هذه الحقيقة، فإنما المقصد الأسمى هو ارتياد ساحة "الدراسة المصطلحية" من باب الدراسة المعجمية التاريخية، واستقصاء التطور الفلسفي للمفهوم، ومن ثم؛ بناء الاستنتاجات المعرفية والمنهجية المتولدة عن هذا النشاط المعرفي، في أفق إتمام هذا الإنجاز في شكل بحوث تطبيقية حول هذا المصطلح..

والله الموفق



لائحة المصادر والمراجع

1. طه، عبد الرحمن. العمل الديني وتجديد العقل، المركز الثقافي العربي، البيضاء، المغرب، ط2، 1997
2. لخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق، 1982م.
3. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، دار صادر، ط 1، 1345هـ
4. أبو نصر الجوهري، الصحاح في اللغة، دار العلم للملايين، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، ط 4، 1990م
5. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ط 2، 1399هـ/ 1979م.
6. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار الجليل، بيروت، 1408هـ/ 1988م.
7. ناظم عودة، تكوين النظرية في الفكر الإسلامي والفكر العربي المعاصر، دار الكتاب الجديد، طرابلس، ليبيا، ط1، 2009.
8. أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي، معجم شجر الدر، تحقيق، محمد عبد الجواد، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1968.
9. محمد حسين، التنظير المقاصدي عند الإمام محمد بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الإسلامية، دكتوراه الدولة، جامعة الجزائر، 2005.
10. المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، 1987 الطبعة (د.ر)
11. المعجم الوسيط، مجموعة من الكتاب، دار أمواج، بيروت، الطبعة الثانية، 1987/1407
12. بناصر البعزاتي، خصوبة المفاهيم في بناء المعرفة، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2007.
13. مقداد يالجين، معالم بناء نظرية التربية الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية، 1991/1411.
14. ميجان الرويلي، وسعد اليازغي، دليل الناقد الادبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الخامسة، 2007



15. طوني بينيت وآخرون، مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 2010.
16. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت. الط (د ت)، 1982
17. وهبة، مراد، المعجم الفلسفي، دار مأمون للطباعة القاهرة الط3، 1979،
18. لالاند، أندريه. الموسوعة الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، 2001.
19. نجم الدين قادر كريم الزنكي، نظرية السياق دراسة أصولية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2006/1427.
20. طه جابر العلواني، أفلا يتدبرون القرآن، دار السلام، الطبعة الأولى، 2010/1431.
21. أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993 /1413.
22. الرازي، فخر الدين (ت 604)، التفسير الكبير المشتهر بمفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981 /1401
23. علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، دار السلام، القاهرة، طبعة: 1429/2008.
24. فخر الدين الرازي، مناقب الشافعي، تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1403/1968
25. جمال الدين عطية، التنظير الفقهي، الطبعة الأولى، (د.ت)
26. إبراهيم عبد الرحمان رجب، التأصيل الإسلامي للعلوم الإسلامية، دار الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، 1997/1416
27. الزحيلي، وهبة. الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثالثة، 1989/1409
28. خلفي، وسيلة. مصطلح النظرية في الدراسات الشرعية المعاصرة، دار الوعي، الجزائر، ط1، 2011.
29. حاج حمد، أبو القاسم. منهجية القرآن المعرفية، أسلمة فلسفة العلوم الإنسانية، دار الهادي، بيروت، ط2003، 1
30. مجلة إسلامية المعرفة، العدد6، السنة. 1996



31. بدوي، عبد الفتاح محمد، فلسفة العلوم: العلم ومستقبل الإنسان. دار قباء الحديثة، القاهرة، الطبعة الثالثة، 2007.

32. فضيل دليو، علم الاجتماع المعاصر: إشكالية ثنائياته النظرية والمنهجية، مؤسس الزهراء للفنون والطباعة، الجزائر، 2005/1425.

33. The oxford dictionary. Clarendon press. Oxford.1991. vol.17.

34. Dictionnaire Le Robert PARIS. 1998. Tome 3.

35. Webster dictionary.



maarifa-center.com



maarifa2011@gmail.com



facebook.com/almaarifa.centre